# أخلاق المهنة في كتاب الفلاكه والمفلكون للدلجي دراسة تحليلية مقارنة

د. فضيلة عباس مطلك
كلية الآداب/جامعة بغداد

## تعريف بالدلجي[١]:

هو شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد الله الدلجي ولد في (دلجه) بصعيد مصر نحو (٧٧٠هـ) وأستقر بالقاهرة ومما يشاع عنه في كتب التراجم ان كان ينزع الى العبث والأستهزاء بالناس والتنقيص منهم حتى أنهم بالزندقة فأبيح دمه[٢].

وكان بارعا في العلوم العقلية والنحو حيث أشتغل بها في مصر وطرابلس ودمشق ، وفي دمشق أشتغل بالتدريس سنة (٨١٨هـ) وهي السنة نفسها التي وصل فيها الى هذه المدينة في المدرسة الأثابكية . يتميز الدلجي برجاحة العقل وفصيح العبارة أشتغل مع مجموعة من القضاة منهم نجم الدين بن بن حجي والقاضي شهاب الدين ابن الكشك الحنفي وغيرهم[٣] ويشار اليه أنه كان متهاونا في الصلاة يتكلم بكلام يدل على زندقته فحكم عليه القاضي نجم الدين مرة بالكفر عاد بعدها الى مصر وتولى مشيخه خانقان خاتون لوفاة أبن السلادي وهي دار موقوفه لسكنى الصوفيه والزهاد والعباد حيث فيها الطعام لهؤلاء من خيرات البساتين والأسواق والموقوفات الأخرى ومع ما قبل عنه الا أن نزوله في هذا الخانقاه وتقربه ومجالسته للمتصوفه يدل على أنه كان من المشتغلين بالتصوف ويقال أنه توفي في (٨٢٠ هـ أو ٨٣٨ هـ)[٤] ويذكر السخاوي ان له فوائد في شرح البخاري وكذلك في الفقه ويذكر عنه أنه عند وفاة قاضي القضاة بهاء الدين انه أي (الدلجي) اشترى كتبه المختصة في العلوم[٥] وهذه اشارة الى مدى أهتمامه في مجال العلم .

**عصـره :**

عاش الدلجي في الثلث الأخير من القرن الرابع عشر الميلادي ومات في الثلث الأول من القرن الخامس عشر الميلادي والمعروف ان هذه الفترة هي فترة الخلال الوجود العربي في الأندلس وزوال حكم الموحدين في المغرب وكان في المشـرق ومصر قد حل حكم المماليك كما تتميز هذه الفترة في الفتن والقلاقل وكانت سوريا والحجاز مرتبطة سياسياً بمصر والعراق تحت سيطرة الأسر الايلخانية[٦] عـاش الدلجي في عصر (المؤيد) الذي يمتاز بأنه كان منهمكا في ملذاته وتسخير خيرات البلاد وثرواتها لأهوائه وملذاته الشخصية فهذا العصر هو عصر قلاقـل وفتـن وأضطرابات إذن فالدلجي لم يكن مستقراً وأمناً بل كان يشعر بـالخوف والقلـق والأضطراب .

**الأخـلاق :**

لا أريد أن أكرر ما بحث فيه دارسوا الفلسفة الإسلامية فـي مبحـث النفـس الإنسانية وأقسامها وخلقها ومعادها وهل هي مفارقة أم غير مفارقة ولكنني سـوف أتطرق الى طبيعة النفس وأمراضها وفي هذا المجال بحث الفلاسفة جميعـا فـي النفس الإنسانية وطبيعتها وأمراضها وكيفية معالجتها وسير أغوارهـا ومحاولـة استئصال أمراضها والتخلص منها والرجوع الى الحالة السليمة كما فعل الـرازي في كتابه الطب الروماني وكذلك مسكويه في كتابه تهذيب الأخلاق والغزالي فـي موسوعته احياء علوم الدين ورسالة أيها الولد وكتبه الاخلاقية الأخرى والجميـع يتفقون على خلاص النفس من أمراضها لكن المعالجات مختلفة وقد يتفق الدلجـي مع الفلاسفة وبخاصة في البحث عن طبيعة النفس الإنسـانية وفيـها وبـها ومـا تتعرض له من تقلبات حيث انه يرى أن الفرح والسرور يعود الى تفشي الـروح الحيواني وتخلخله وبالتالي تتولد سعة الصدر فيتقبل فتستقبل النفس ما يرد عليـها وتنفعل له وأن الكمد والقبض هو تكاثف الروح الحيواني وتجمعه فتتولد عند ذلـك طبيعة العطن والنزق وسوء العشرة والأنحراف والأنكماش عن الخلق ولا يخفـى ان ذلك كله من الأخلاق الرديئة[٧] .

أن ما يتميز به الدلجي هو عرض آرائه بأسلوب نقدي ويرجع أمراض النفس والأخلاق الرديئة الى أسباب خارجية لكنها تصبح فيما بعد أمراض نفسية ناتجة عن القهر والأكراه حسب رأيه ويفرد لها ثلاث فصول خاصة في كتابه الوحيد الفلاكه والمفلكون وهي الفصل السابع والثامن والتاسع ففي الفصل السابع يقول "ان المفلوكية والإهمال والإملاق غالب على جنس البشر والسبب في أن غالب البشر يرمقون العيش ترميقا ويدافعون إخفاق المساعي مدافعه ويتسكعون في طرق الإملاق أو فوقه بقليل تسكعاً" هذا وصف دقيق لحال الفقير المكره عليه وهو من أسباب الغلبة أي غلبه الحاجة التي يطلبها ولا يستطيع أخذها واستغلال الأغنياء له وعدم إعطائه حقوقه من الكفاية المادية من هنا فهم متحيرون لا يعرفون أين يذهبون ولا يدرون الى أين يؤخذون هذا بالنسبة للفقير أما التجار والفلاحون فهم أيضاً لا يسلمون من هذه الحال بفعل الأيدي الغاصبة الخاطفة المستولية على التجار لمقهوريتهم مع الدولة وحاميه الملك وخاصته المخادعين بالأستدانه والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والالتجاء الى الإعارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء وربما تكرر ذلك على التاجر الماهر فعاقه واقعده عن أمثاله حتى على رأس ماله مما يؤدي هذا الى غلبه الفلاكه الماليه وهذا يؤثر على نوع الإنسان ويكون هو السبب في الفلاكه الحالية أي تعذر المقاصد وانعدامها بحيث تصبح الفلاكه حالا ووصفا ذاتيا للشخص في أفعاله وأقواله دفعا وتحصيلا حكما وتعليلا . والدليل على ذلك القول أن هذا مفلوك مالا وكل مفلوك مالا فهو مفلوك حالا ينتج هذا مفلوك مالا ، كليه كبرى بديهي أو حسي والصغرى مسلمة بالغرض أو محسوسة . ويعطي أدلة منطقية ويستنتج منها بالأستدلال أو بالأستقراء أن المال عبارة عن ملك الأعيان والمنافع ، والجاه عبارة عن ملك القلوب وأستسخار اصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها لذي الجاه من أعتقاد الكمال والألتفات اليه ، والمفلوك لا جاه له ولا مال وكل من لا جاه له ولا مال فهو مسلوب القدرة ذلك لأنه يضع الجاه والمال من أعظم اسباب القدرة أو هما أسباب القدرة ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول الى مطلوباته[٨] الدلجي هنا

واقعي حسي يصل الى النتائج عن طريق التطبيق العملي لما يدور في المجتمع والسبب في ذلك هو الضعف والانحطاط الذي آلت اليه الدول العربية والوجود العربي في حين لو رجعنا الى العصر الذهبي والى ما بعده أي من زمن الرشيد والمأمون والمعتصم ... ألخ) نجد أن الكندي الذي واكب هذه المسيرة وهو فيلسوف العرب الأول وفي رسالته الحيلة لدفع الأحزان حيث يتحدث الكندي أن المطلوبات هي ليست مادية وأنما هي عقلية ويضرب لذلك مثلا بالمركب الذي حمل جماعة من الناس ووصل الى منطقة فيها كل مالذ وطاب من مال وغيد حسان وأرض مزدانه بالزهور لكنه عندما أراد العودة .. (القصة)[٩] لم يفضل سوى من متع نظره فقط أما الذين حاولوا حمل الأمور المادية فقد تعرضوا لأنواع شتى من المتاعب لاحظ الفرق فيه الأثنين (الازدهار – الانحطاط) وما يحصل للحالة النفسية وطريقة التفكير والأخلاق التي يطلبها الدلجي ويعود السبب في ذلك كله حسب رأيه الى غياب العدالة وهذا يعود ايضاً الى غياب سلطة الدولة الحقيقية (العربية) (الوجود العربي) . ومتى أستولى القهر والغلبه على شخص حدثت فيه أخلاق رديئة من الكذب والخبث وفساد النوية والخديعة[١٠] وهذا حسب رأي الدلجي يعود الى التربية .

## التربية وأثرها في الأخلاق

لقد أجمع فلاسفة اليونان ومن بعدهم المسلمين على أن للتربية آثاراً كبيرة في سلوك الفرد وبناء شخصيته السوية أن كمال التربية من العوامل القوية لأرتقاء الأخلاق ، وأن هذا الكمال يتعلق بجزئي التربية وأعني بها الأسرة والمعلم وأن دور الأسرة حسب رأيه يفوق دور المعلم من هنا فهو يوصي الأسرة بعدم ترك اخلاق اولادهم تنمو بالطبع والمصادفة ذلك أن المعلم يستلم تلميذه في وقت أكتسب فيه صفات وعادات نمت وتأصلت فيه فالواجب على المربي ملاحظة عدم تسوب عادات رديئة الى اخلاق خاصته والأكراه حسب رأي الدلجي أول الأسباب التي تولد الممارسات الرديئة والتي تنعكس من خلال الفرد الى المجتمع .

ويظهر لنا الدلجي في موقفه هذا تربوياً ممتازاً يخشى على المجتمع من أكتساب الممارسات الرديئة ويضع لذلك حلا : فيقول : "ولذلك ينهي عن أرهاف الحد على الولدان والعبيد ويؤمر بترويجهم ، ومد الطول لهم ، خشية عليهم من أكتساب هذه الاخلاق الذميمة"[١١] .

ويضع الدلجي صفات للمعلم والمتعلم وطريقة التعليم وهي أن يكون المعلم اميناً في علمه صادقاً مخلصاً لمهنته لا يضيع الوقت ولا يستهين به بل يعلم الطالب الحرص عليه والاستفادة منه في طلب العلم والمعرفة وان يستخدم اساليب مختلفة فتارة بالتقرب وتارة بالشدة والغلظة أي أنه يستعمل الترغيب والترهيب وطيلة المراحل العمرية وهو بهذا يوافق ابن سينا حيث أنه يبيح حتى الضرب ويقول ان تكون الضربه الأولى قوية لكي تأتي بنتائج إيجابية وأن لا يعود الطفل على الضرب والعقاب كي لا يفقد الغاية منه لأن العقاب غايته هو أن يعود الى الأسلوب الصحيح وليس العقاب لأجل العقاب والحاق الأذى كما أنه أقر مبدأ المكافأ (الحوافز) للمتفوق . لكنه أي (الدلجي طيلة المراحل العمرية) .

ويحدد الدلجي أمراض النفس وهي :

الحقد ، الحسد ، الغيبة ، الشهرة ، المباهاة وغير ذلك[١٢] .

ولم يكن الدلجي أول من وضع سياسة التلميذ بأستاذه ، فنحن نجد أن ذلك عند مفكري الإسلام ونبدأ بجابر بن حيان (ت، ١٦٠هـ) الذي يعد أول مفكر عربي تحدث عن العلاقة القائمة على الأحترام وقبول علم المعلم لأن منزلة المعلم هي منزلة العلم نفسه وهو بهذا يقول : "فأما ما يجب للاستاذ على التلميذ فهو أن يكون التلميذ لينا قبولاً لجميع اقاويله من جميع جوانبه لا يعترض عليه في أمر من الامور وأن كان كافياً متصوراً للأمر ، فأن ذخائر الاستاذ العالم ليس يظهرها للتلميذ الا عند السكون اليه والا حماد له غاية الا حماد ، وذلك ان منزلة الاستاذ منزلة العلم نفسه ومخالف العلم مخالف الصواب حاصل في الخطأ والغلط وهذا لا يؤثره عاقل" ، وهو يرى أيضاً . "أن التلميذ متى لم يكن للاستاذ على هذا المقدار من الطاعة اعطاه الاستاذ قشور العلم وظاهره والشيء الذي يقال له . علم الخارج

والبراني . ولست أريد بقولي في التلميذ ان يكون طائعا للأستاذ في شيء من الأمور الجسمانية والظاهرة من أنواع المنافع بل أنما أريد بذلك قبول العلم والدرس وسماع البرهان عليه وحفظه وترك التكاسل والتشاغل عنه فأن تلك الأمور الأولى لا مقدار لها عند الأستاذ لان الاستاذ كالامام للجماعة وكالراعي والسائس للأشياء التي يتولى صلاحها واصلاحها فمتى عسرت عليه أو عسر عن التقويم ، فأما ان يطرحها واما أن يتعبه تقويمها الى أن تستقيم"[١٣] .

ويجعل جابر التعليم حسب قابلية التلميذ لتلقي العلوم فهو يضع الأمتحان أولا لأختبار قابلية التلميذ والمرحلة العمرية التي يمر بها فإذا نجح زاده وكلما أثبت جداره وذكاء وقابلية على أخذ المعلومات وتفاعله معه زاده من علمه ومعنى هذا أن العلم حسب الكفاءة والذكاء والمستوى العلمي الذي يتمتع به التلميذ وقابليته على أستقبال وتقبل المادة العلمية وتفاعله معها إضافة الى ما يتمتع به من أدب وخلق رفيع وهو أي الاستاذ أو المعلم في كل هذا عليه أن لا يتخطى المراتب فيظلم الطالب في التعليم لأن ذلك فساد في التعليم وضرر في العقبى عظيم جداً كما يقول بن حيان ولا يزال في تدريجه على ذلك من مرتبة الى مرتبة الى أن يبلغ الى آخر المراتب وعند وصول الطالب الى هذه المرتبة من العلم ومن رموزه وصغائره ولطائف ما فيه عند ذاك لا يبخل الأستاذ علي تلميذه مما لديه من علم على أن يراعى المستوى الذي يتحمله العقل عند التلميذ والا كان محظور على الأستاذ أن يعطي الطالب ذلك وأن يكون العلم صادقا مؤتمناً فإذا لم يفعل ذلك كان حسب قول جابر خائن والخائن لا يؤتمن (خان المهنة) ويصفه بالجهل[١٤] كما أنه يضع المؤانسه العقلية توجب الظهور بالسرائر والكوامن من ذخائر العلوم ومهج النفوس لذلك فهو ذكر ان السبيل للتلميذ ان يكون لينا للاستاذ فيظهر للتلميذ ، كذلك أن سبيل الأستاذ أن يكون سمحا بما عنده من العلم وليس على كل أحد ولكن على مثل هذا التلميذ الذي رتبناه تلك المرتبة وبمعنى أدق ان يكون الاستاذ والتلميذ متعاطفان بعضهما على بعض تعاطف قبول أي أن التلميذ كالمادة والاستاذ كالصورة ولا يقف جابر عند هذا الحد من بيان وتبين العلاقة بين الاستاذ والتلميذ بل يطرح

شروط منهجية قويمة يشترطها على القارئ في كل بحث علمي يرجع فيه صاحبه الى النصوص والأصول والوثائق فيقول : "فأن هذه الكتب إذا أجتمعت أمكن الدارس لها ثلاث مرات على ما أصف"[٥] المرة الأولى للتصحيح وبين له ما فيها من الفاظها ، وأما الثانية فلدرسها وأظهار ما تحتها وأما الثالثة فلجمع المعاني الى مواضعها وما يليق بها من المعاني والفنون أن يبلغ منها الى النهاية المطلوبة منها. نفهم من هذا النص أن جابر يشترط على الدارس أن يقرأ كل كتاب يصعب فهمه ثلاث مرات فالقراءة الأولى للتثبت من صحة ألفاظ النص ومعاني تلك الالفاظ والثانية لدراسة النص لغرض الوصول الى معرفة مدلولاته والثالثة للتبويب والتصنيف إذا فلكل قراءة من هذه القراءات الثلاث هدف معين[١٦] . هذا المنهج ما كان ينصحنا به مدرسينا لكي تتثبت المادة في أذهاننا ونعرفها بصورة أفضل هذا المنهج العلمي الدقيق والتعليمي وضعه جابر إضافة الا انه يشترط فيه الأمانة والأخلاص وإذا قصر في ذلك يعتبره (خائن) كما سبقت الإشارة إليه خائن للعلم وللمهنة كما أنه يشير الى ناحية مهمة جداً في كتابه التجميع أن العالم عليه أن يكون منصفا فإذا كان منصفا فأنه ليس ينزل في الأقسام شيئا الا ذكره واحتج عليه وله وأخذ حقه من خصومه ووفاهم حقوقهم ، والا فقد وقع العناد وهو حماقه وجهلاً . وفوق هذا فهو يشترك في العالم ان ينصف نفسه فيما تستحق من الاوصاف وأخذ هذه الفكرة من مطالعته نصر فريوس وشرحه لما يحصل من التعفنات إذا كانت الأرض رطبه فالأنصاف إذا هو تساوي الا مزجه لكي تحتفظ الشخصية بتوازنها وصحتها وعلمها وإذا لم يكن كذلك فتحصل العفونه نتيجة عدم التوافق في النسب والتعرض لنسب الهواء والماء هذه نظرة عالم كيميائي ليس فيها مواريه ولا مراوغه فأين نحن من أخلاق العالم[١٧] ثم أنه في كتابه الأخر الراهب يجعل نفسه من أستاذه كمنزلة الأبن من الأب ولصدقه أخلاصه فهو ينسب في هذا الكتاب كل علم الى صاحبه إذا كان مخصوصاً به وهو بهذا يقول : "ولكن صوت بما أودعني من العلم مشتقا منه كالأبن من الأب مضافا اليه كالنصف من الضعف وأمثال هذه لم يكن فرق بين ما أورده من علمي وما أخذته عنه وسمعته منه إذ

كان الكل واحداً في المعنى" . وعند مواصلتنا لقراءة النص نجد أنه يفترض في العالم بل يجب ان يكون دؤوبا متواصلاً في الكشف عن الحقيقة والوصول الى النتائج التي يحرص في الوصول اليها ولا يترك لليأس منفذا لتدخل في نفسه . هكذا يطرح جابر بن حيان الأسس العلمية للنجاح والأسلوب العلمي المتبع والأخلاق التي يتخلى بها العالم . هذا الأنموذج الذي يمثل قمة الحضارة العربية والوجود العربي .

ننتقل الآن الى فترة الانحطاط لنرى هل أن الحال بقي على ما هو عليه في المستوى الأخلاقي الراقي .

يحذر الدلجي من آفة الحقد ذلك أن أستحكام بعض الظروف الاجتماعية على شخص يعرف بها فأنه يجلب اليه أنظار الناس خاصة إذا لم يكن لديه سلطة ولا يخافونه فيصفونه بشتى النعوت ويظهرون نقائصه عند ذاك يتولد الحقد لديه ويدخل الى الباطن وتحول الى حقد وضغينة وتعوقه موانع الفلاكه فيصير ألماً صرخاً ووسواسا[١٨] وقد ينتقل هذا المرض الى الغير فيصبح ظاهرة اجتماعية مرضية تؤدي الى عدم الانسجام والتوافق . كما أن هذا الحقد يؤدي الى الانتقام وإذا عجز عن الأنتقام يلزمه حب زوال تلك النعمة التي بها التفاوت اللازم منه الاغاضه وهذا يلزم الحسد ، أو هو شعور بعض الناس بأن أشخاصا مساوون لهم في صفات النفس قد أصابوا مالا أو جاها وخافوا ان يتكبروا عليهم وهم لا يطيقون ان يتكبروا عليهم ولا يستطيعون أن يغيروا من حالهم شيئاً تمنوا زوال تلك النعمه أو المال او الجاه وهذا هو الحسد[١٩] وهكذا الحال بالنسبة للغيبه وهذه صفات المفلكون عند الدلجي وهي أخلاق الضعفاء عند الكندي الذين لا يملكون المادة للحصول على مطالب الحياة لهذا فهم يتبعون مختلف الأساليب والوسائل الخسيسة والدنيئة للحصول على مطالبهم وهي كلها باعثه على الشر هذا ما ذكره في رسالة دفع الأحزان التي قسم فيها الناس الى قسمين الأقوياء من توفرت لهم مطالب الحياة المختلفة وهم الأقوياء (الملوك) الا أنه من ناحية أخرى يريد من الناس الأرتقاء الى مستوى الأقوياء في التعفف وحسن السيرة أما الفارابي فأراد أن يبني

المجتمع تربويا من خلال رئيس المدينة الفاضلة ورئيس العائلة والذي يحث على طلب الفضيلة والأبتعاد عن الرذيلة (آراء أهل المدينة الفاضلة) أما أبن سينا فكان اهتمامه بالتربية كبير . أو بدأها بالسنين الأولى من عمر الطفل بل ذهب الى أكثر من ذلك اراد للطفل أن يبني جسديا وعقلياً ونفسياً انسانا سوياً صحيحاً يعيد عن العلل والأمراض وليس هذا حسب بل أراد للمربي أن يكون صحيحاً كذلك لئلا ينتقل المرض الى الطفل (وسائل أبن سينا) اما الغزالي فهو كأبن سينا مع أهتمامه الكبير بالنواحي التربوية على الشريعة الإسلامية (تربية دينية) في (أحياء علوم الدين ورسالة أيها الولد) وأتفق الأثنان على أن الأبناء هم مسؤولية الآباء وعليهم مسؤولية تربيتهم التربية الصحيحة وهو يقول (الغزالي) يولد الطفل وهو صفحة بيضاء وكل ما يتعلمه فهو من المربي والعائلة والبيئة فالمطلوب إذن هو الفضائل والابتعاد عن الرذائل وهذا ما وجدناه عند جابر بن حيان أما الدلجي فالوضع مختلف عنده على الرغم مما أراد من شفاء للنفوس من أمراضها كما فعل الرازي ومسكويه وأبن سينا أيضاً الا أنه يذكر اخلاق المفلوكين .

لاشك في ذلك لأن غياب السلطة المركزية (الدولة العربية) ووصول كل من هب ودب الى الحكم سبب الانقسامات السياسية وانقسام الدولة العربية الى دويلات صغيرة لكل منها حاكمها لا أريد الدخول في الوضع السياسي أنما الذي يهمني هو الأخلاق يتحدث الدلجي في موضوع الشهرة والذكر الحسن حيث يرى أن الآثار السيئة التي تتركها آفات الرذيلة على الإنسان كبيرة جداً وأنها تصبح ممارسات يوميه تطغي وتغطي على الأعمال الحسنه وكمالات ومعارف الإنسان الامر الذي يجعلها تسري على طريقة كلامه وسلوكه ومقاصده بحيث يغفل عنها ولا يعبأ بها ويعطي لنفسه الحق في تأويلها وجعلها هي الصحيحة والمقبولة هذا مما يؤدي الى ظهور ظاهرة خطيرة وهي اشتهار الناس بما لا يستحقون منها والأمثلة على ذلك كثيرة فمثلا ظاهرة نسبة الكتب الى غير أصحابها الحقيقيين حيث تكتب بأسم شخص مرموق بغية استغلال اسمه ومكانته لإضفاء الأهمية عليها وهي لا تستحق بقصد ترويجها[٢٠] (الخيانة) في عرف جابر بن حيان خيانة المهنة واستغلال أسم

الشهرة للوصول لأغراض دنيئة بسبب ضيـــاع المقـــاييس والأحكـــام الصائبـــة لمستحقيها والعكس موجود أيضاً لكنه أي صاحب الكتاب الجيد والبحث الجيـــد لا ينال السمعة للسبب نفسه (الأحكام الخاطئة والمقاييس المغلوطه) .

لذا نجد أشخاصاً ذاع صيتهم وهم لا يستحقون ذلك وليس هذا حسب بل أنتقلت الى أضفاء صفات حسنه على أشخاص ليس هم كذلك كالورع والصـــلاح والعلـــم والعكس هو الصحيح أي ضاعت المقاييس وأختلطت القيم فليس هناك من معيـــار صائب لمستحقه بالسلب أو الإيجاب وبهذا يقول الدلجي : "أن الفلاكه متى زالـــت عن شخص تزلف بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه وحمـــل كلامـــه وفعلـــه مـــن المحاسن والمقاصد الجميلة فوق طاقته وتناقلته الألسنة تزلفا اليه ، لما يعلمـــون ان النفوس مجبولة على حب الثناء ووقعت المحاباة والإغماض عن أحواله المدخولـــة وأفرغت في قوالب جميلة بالتأويل والاعتـــذار وجـــاءت المغالطـــات بـــالتلبيس والتصنيع فيطير ذكره في الآفاق"[٢١] . فأين هذا مما دعا اليه الفلاسفة والمفكـــرون الأوائل الذي ورد ذكرهم آنفا إضافة الى ما قامت به مدرسة حنين أبـــن أســـحق وأسحق أبن حنين وأبن أخته جيش الأعسم حيث أنهم أمتازوا بالامانه والأخـــلاص للمهنة مما جعل حنين يسافر ويتجشم الصعاب لطلب المعرفـــة أي أتقـــان اللغـــة اليونانية واللغة العربية ونقل التراجم من لغاتها الأصلية الى اللغة العربية وليـــس هذا حسب وأنما استخدموا المنهج العلمي في الترجمة وهي المقارنة بـــأكثر مـــن نسخة والرجوع الى ما يقابلها باللغات المختلفة واستخدام المصطلح الدقيق للجملـــة وهذا هو السبب الذي ميز الترجمات العربية عن غيرها من اللاتينية في العصـــور الوسطى إضافة الى الإشارة الى المصادر وفهم الموضوع[٢٢] من هنا فأن اليـــون شاسع بين الترجمتين ومن هنا تفوقت الترجمات العربية على غيرها من الترجمات التي سبقتها ولهذا فقد ذاع صيت بيت الحكمة حيث أنه كان يمثل أكاديمية عظيمـــة بل جامعة راقبه ومكتبة ضخمة هذا كان في عاصمة الخلافـــة العباســـية بغـــداد المنصور والرشيد والمأمون وتذكر قصة حنين التي رواها القفطي في ذلك علـــى أستاذه يوحنا الذي تملص من الاجابة على سؤال حنين والتي جعلته يخرج ليســـافر

ويتقن صنعة الطب والترجمة أي رحلة في طلب العلم ونقل العلوم القديمة بدقة الى العربية وكان فضله في ذلك كبير جداً على الفكر والعلم الى يومنا هذا كما تذكر المصادر عن حنين بأنه كان[٢٣] رجلا فاضلا دقيقا مخلصا حريصا هذه الصفات التي يتمتع بها طالب المعرفه بصورتها الناصعة وليس المشوشه المزوقة التي يمكن ان يحصل عليها السفهاء الذين يتباهون بالمعرفة الظاهرة وليس المعرفة الحقيقية والحق يقال أن هذا العصر كان عصر المعرفه الحقه والأخلاص للمهنة ليس من أجل المال أو التظاهر وانما هي سمة أتسم بها رجال الترجمة (مدرسة حنين أبن اسحق) وكل الذين ساهموا في هذا الانجاز العلمي الضخم حيث كان منهم علماء وفلاسفة إضافة الى ترجماتهم التي أنجزوها فالعلم يؤخذ لذات العلم وليس لشيء آخر فغايتهم هو طلب المعرفة والوصول الى الغاية وهي (السعادة) وهذه أي السعادة اختلفت السبل والطرق في الحصول عليها تبعا للغاية التي طلبها الفيلسوف سواء كان عقليا بالفيض أم كشفيا لكن الدلجي يمثل عصره الذي طغت فيه المادة والجاه والسلطة أي الملذات الدنيوية وأصبحت المادة هي أساس كل شيء وليس غاية العالم والفيلسوف الحقيقة من هنا فكتابه هذا الفلاكه والمفلكون يتحدث عن الفقراء وبهذا فالفلاكه شملت العلماء والافاضل والنابهين وهي تسبب لهم الا ما تؤدي الى الملامة والتقريع والتوبيخ وهذا الشد وقعا عليهم من الالم الجسمي وهذا دليل واضح على أنتشار الأمراض في المجتمع . يذكر الدلجي ان من لم يحصل على حقه وهو مقتنع بأنه أحق من غيره بالحصول عليه ولكن للحالة التي أصبح عليها المجتمع يمنعه من تحقيق مطلبه لذا فأنه يتعرض الى آلام نفسية تنعكس على سلوكه وأخلاقه فيستبدل (الكمد) بالفرح الامر الذي يسبب له الآما عقلية وبسبب الانتقاص الحاصل من الآخرين لهؤلاء مما يزيد في عذابهم وآلامهم أضافة الى النعوت الموهومه التي يصفهم الناس بها وهم أبرياء منها وقد عانى أهل الفضل من ذلك كثيرا ويرجع الدلجي ذلك بقوله : (أن النفس مجبولة على المساواة والمباهاة ولا تحب لغيرها تفوقا عليها فمهما وجدت سبيلا للتنقيص من كمال الكمل ولو تلبيسا مقبولا سلكته تنقيصا للكمال وطلبا للمساواة بحسب الإمكان

بخلاف الناقص في نفسه فلا حاجة الى تنقيصه)[٢٤] وهذا ما نراه اليوم منتشرا انتشارا واسعا في المجتمعات اليوم بل أن هذه الخصائص أصبحت هي السائدة وكأننا نعيش في عصر الدلجي . وأين هذا من تلامذة اسحق وأخص بالذكر الطبيب الذائع الصيت والفيلسوف ابو بكر الرازي والذي يشير في كراسه (مرشد الأطباء) يظهر فيه بأنه كان كما هو واضح مدرك أدراكا تاما علميا لمهنة الطب ، يوضح فيه نصائح للاطباء منها (إذا نزلت مصيبة بطبيب فلا تفتحنّ فمك بلومه فلكل أمرء ساعته) و (فليسمُ بك عقلك وجدك ولا تبحث عن الشهرة بطريق انتقاص الآخرين) (لا تتردد في عيادة فقير أو معالجته إذ ليس ثم عمل أشرف من هذا). (أدخل الطمأنينة الى قلب المريض المتألم ومنيه بالشفاء ، وأن لم تكن صناعتك واثقة من شفائه لأنك بذلك تساعد قواه الروحية على المقاومة) هل هنالك أفضل من هذه المواقف الاخلاقية الرائعة واخلاص ووفاء للمهنة أكثر مما قدمه الرازي في هذا الكراس الذي ذكره مايرهوف في بحثه عن العصر الذهبي للترجمة[٢٥] إذن بهذا المستوى الأخلاقي الراقي قدم العرب المسلمون أروع الانجازات العلمية ، وبنوا أعظم حضارة .

## الوضع الاقتصادي والمكانه الاجتماعية عند الدلجي :

لقد عرفنا من دراستنا للفارابي بأن المال يجب أن يكون في خدمة المجتمع بأعتبار أن الفرد هو جزء من المجتمع والمجتمع يتكون من مجموع الأفراد والمال في رأي الفارابي يجب أن يكون تحت أشراف الدولة لغرض توزيعه على الافواد كما أنه بالضرورة يجب أن يكون المال لعمل الخيرات والمال بعد هذا كله ضروري في حياة الفرد لأن الفرد لا يستطيع أن يقوم نفسه وحياته بغير المال لكنه يجعل للمال شرط أساسي (حسن الاستخدام) في فعل الخير وأكتساب الفضائل وهذا في المجتمع الكامل الذي يعرف كيف يستغل المال لحسن التصرف وخدمة المجموع وهو بهذا يميز بين المجتمعات التي تحسن التصرف بأموالها والمجتمعات التي لا تحسن التصرف وعلى هذا التأسيس انشأ الفارابي نظريته في تقسيم المدن الى فاضله ، كامله ، ناقصه ، جاهله ، ضآله . وهذه الأخيرة

(الثلاث) تسعى لجمع المال بقصد الملذات الدنيوية والمصالح الفردية لأنها لاتصرف في أعمال الخير[٢٦].

الدلجي يعرف المال : بأنه عبارة عن ملك الأعيان والمنافع .

ويعرف الجاه : عبارة عن ملك القلوب وأستسخار اصحابها في الأغراض والأعمال لما فيها من لذي الجاه من أعتقاد الكمال والألتفات اليه[٢٧] .

يفسر الدلجي ان أصحاب المال هم أصحاب الحضوة في جميع اصناف المعاش من ذوي اليسار والثروة وبهذا فهم أصحاب الجاه ومن لا مال له لا جاه له ومن هنا يربط الجاه والمال بالقدرة فيقول أن الجاه والمال من أعظم أسباب القدرة ومن لا قدرة له فهو عاجز عن الوصول الى مطلوباته هذا الرأي اقرب الى رأي الكندي الذي جاء فيه أن الأقوياء هم من توفرت لهم المطلوبات (المال) وهم الأغنياء لكن رأي الكندي أقترن بفعل الخير في المطلوبات لأن الغني وحده قادر عليه أما الفقير فهو لا يملك المال أصلا لكي يحقق لنفسه المطلوبات والمطلوبات هنا مادية ولهذا فهو ليس عنده شيء يسيطر به على شهواته الدلجي يمثل عصره حيث وجد الناس يحيطون ويركضون لخدمة صاحب الجاه لحاجتهم اليه من هنا فهم يضعون أموالهم ومنافعهم في خدمته مما يؤدي الى زيادة ثروته ويساره ذلك لخوفهم منه فيدفعون الخوف بالتملق اليه والتقرب منه بمختلف السبل وهذا ما يقومون به التجار الذين يخشون الأيدي الغاصبة الخاطفة من حامية الملك لاسيما المخادعين منهم ، فأهل الجاه من التجار يكونون بذلك أكثر يسارا من غيرهم وهو بذلك يقول : "من لا قدرة له لا يتعلق الرجاء والخوف به ، ومشايعة الناس الشخص ومساعدتهم أياه على مراده دفعا وتحصيلا وتسليمهم له حكما وتعليلا لابد لها من داعية وغرض"[٢٩] .

من هنا فأن الدلجي يربط أفكاره هذه بالوضع السياسي والاجتماعي والاقتصادي السائد في عصره كما أنه وضع التوقعات لما يستحصل بالحسبان مستقبلا وعلى هذا الأساس كان يناقش الحال ويضع الافكار كما أن حب المال وكون الإنسان مجبول على حبه ويأتي بحديث لرسول الله (ﷺ) [ لو كان لأبن آدم

واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا ] . وقال أيضاً : [منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال][٣٠] .

وكما يربط أيضاً ربطا وثيقا بين الجاه والمال فالجاه يكون سببا من أسباب الغنى وانعدام الجاه يكون من أسباب الفقر فالقضايا إذن لم تكن مبنية على الكفاءة والشرف والنزاهة لذا فأن الناس ووفق هذا المبدأ (الأول) يجعلهم يتقربون الى صاحب الجاه لكن هذا التقرب يفقدهم أخلاقهم الحسنه ويجعلهم يتملقون ويخضعون لأصحاب الجاه والمال وليس هذا حسب وأنما أصحاب الجاه والمال هم الآخرون يتخلقون بهذه الأخلاق الذميمة والسبب في ذلك يعود الى أنه لا يوجد من يتخلق بالترفع والشمم من بين أصحاب الثروة واليسار ... لذا فأن سبب لجوء الناس الى التملق والخضوع وسط الأعذار المبالغه في الأعتذار وأظهار حبهم وتوددهم ومنا صحتهم هي صفات وسلوك مفتعل وغير صحيح كل ذلك بقصد الوصول الى الغاية المطلوبة ومع هذا الجو المشوب والمناخ المليء بالأمراض الاخلاقية والظواهر الاجتماعية الغير صحيحة الا أن الدلجي يضع الفضيلة والرذيلة والخير والشر نصب عينيه ويحذر من خطورة هذه الأحوال ونتائجها الوخيمة الا وهي كما يقول أرتفاع الاسافل الى الأعالي في الدولة ذلك لأن نفوس الأدنياء لا تأنف من الخضوع والتملق الا أن طمعها لا يتوقف عند حد بخلاف الأعالي الذين يتصفون بالأتزان والعقلانية والرفعه وافعال الخير وهو بهذا يشارك الكندي في وصفه لا خلاق الأقوياء وأخلاق الضعفاء "والدلجي يقول في ذلك" أعلم ان الناس لا يبذلون منافعهم واموالهم سدى بغير غرض ولا علة"[٣١] . فالدلجي يشرح أحوال عصره وما آلت اليه النفوس من حب للمال والجاه بطرق غير شرعية ولا طموح مشروع أو كفاءة وأنما هي فترة فوضى اخلاقية وقيمية وعدم التزام بالشريعة الإسلامية وليس هناك من تنظير كما سبقت الاشارة اليه عند الكندي والفارابي والرازي وأبن سينا والغزالي فقد وضعوا نظريات في التربية والاخلاق والسياسة والاقتصاد وأنما هو عرض لحال المجتمع الذي فقد كل مقوماته الأساسية المتمثلة بتراثه (أخلاق العرب) و (الأخلاق التي جاء بها الدين الإسلامي) وما دعا

اليه الفلاسفة والذي سارت عليه الدولة العربية في مختلف عصورهـــا الراشـــدي والأموي والعباسي في عهد الأزدهار والسبب الرئيسي حسب رأي الدلجـــي هـــو أنغماس الحكام بالملذات المادية وتسخير الأموال لنزواتهم هـــذا اصبـــح شـــغلهم الشاغل دون النظر الى أحوال الدولة ومصالح الناس وبناء المجتمع من هنا فـــأن على فلاسفة الاخلاق والسياسيون والتربويون مسؤولية كبيرة للحفاظ علـــى حالـــة التوازن في مجتمعنا العربي بعد أن تعرض لهذا الغزو المبرمج من قبـــل أعـــداء الأمة المتمثل بالولايات المتحدة والمخطط والمبرمج لها الكيان الصهيوني بقصـــد السيطرة على العالم من خلال التفسخ والانحلال ليسهل الدخول وما علينـــا الا أن نقف بوجه هذا التيار الجارف المزوق بشتى النظريات العلمية والسلوكية والقيمية تحت مظله المنهج الحركي الذي يساير العصر من هنا فما علينا الا رصد مثل هذه السلوكيات التي أنتشرت في مجتمعنا الذي يمثل المجتمع الملتزم والمتماسك لكـــن ريح الشر بدأت تعصف به وبدأت تنتشر الصفات الدنيئة (من خضـــوع وخنـــوع ووصوليه وتملق والصعود السريع بغير كفاءة) اما الملتزمين فأخذوا ينســـحبون أو يتصدون ويعرضون انفسهم للأذى ومع هذا كله نجد أشراقات الخير تنبعـــث مـــن جديد في شخص قائد الحملة الإيمانية الرئيس القائد صـــدام حســـين "حفظـــه الله ورعاه" فالدين هو التمسك والألتزام والأتزان والخلق الحسن والفضيلـــة والعدالـــة والمساواة ورفع الظلم أي بكلمة أدق هو بناء المجتمع السليم وليس هذا فحسب بـــل أنه مستمر بهذا المنهج الملتزم في توجيه المجتمع على الطريـــق الســـليم وذلـــك واضح في خطابه الذي وجهه الى الشعب العراقي والأمة العربية الـــذي تضمـــن الوصايا القيمية والتي يجب ان تكون برنامج عمل على مختلـــف الأصعـــدة فـــي الأسرة والمدرسة والكلية (الجامعة) والدوائر الرسمية للفرد مع نفسه والفرد مـــع الآخرين . فلا خوف أذن على مجتمعنا وان هذه الممارسات السلبية يجب أن تنبتر ويتم استئصالها لأنها كالسرطان ســـريعة الأنتشـــار فـــي الجســـم فالحداثـــة اذن والعصرنه هي بالعلم والعمل الصادق والأخلاص والوفاء للوطن والأمة مما يقدمه المرء من أختراع علمي أو نظرية علمية للتقدم وليس المراوغـــه وطـــرد القيـــم

الأصيلة واستبدالها بما تعرضه علينا أجهزة الأعلام الغربي من قيم لا تتماشى مع مجتمعنا العربي ولا مع شريعتنا الإسلامية ومتى كان العلم مضاد للأخلاق ، فالأخلاق علم والعلم أخلاق وكل مخلص لمهنته فهو كالجندي في ساحة المعركة يضحي من أجل هدف سام هو حب الوطن والشرف والوفاء له وهذا ما أشرت إليه عند الكلام عن الفلاسفة الأوائل وما الإمبراطورية العربية التي وصلت إلى مناطق بعيدة جداً كحدود الصين هي خير مثل على ذلك وما تطلقه أجهزة الأعلام الغربي الان من سيادة للانترنيت والكومبيوتر فهل هذا سيغير أخلاق المجتمع (الثورة المعلوماتية) سيغير السلوك وهل أن الفضيلة تصبح رذيلة وهل هناك مرادفات غير الفضيلة نفسها والرذيلة هي ضدها ؟

**الهوامش :**

١ – اللباب في تهذيب الانساب – الجزري ص٥٠٦ وانظر طارق هاشم خميس – أحمد بن علي الدلجي وآراؤه الفلسفية والعمرانية في كتاب الفلاكه والمفلكون ، رسالة ماجستير غير منشورة ص٦ .

٢ – عطية الله احمد – القاموس الاسلامي ج٣ ص٣٨٢ وأيضاً طارق هاشم ص٦.

٣ – النعيمي عبد القادر – الدارس في تأريخ المدارس ج١ ص١٤٦-٤٤٨ . وأنظر طارق هاشم المصدر السابق ص٧ .

٤ – طارق هاشم – المصدر نفسه ص٨ .

٥ – المحامي، محمد فريد بيك – تأريخ الدولة العليه العثمانية ص٣٥ .

٦ – ابن تغري بردي – جمال الدين يوسف ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج١٤ ص١ .

٧ – الدلجي – الفلاكه والمفلكون ص٢١-٢٢ .

٨ – الدلجي – المصدر نفسه ص٧٦ .

٩ – الكندي – رسالة في دفع الاحزان .

١٠ – الدلجي – المصدر نفسه ، ص٢١-٢٢ .

١١ – الدلجي – ايضاً ص٢٢ .

١٢ – الدلجي – ايضاً ص٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .

١٣ – جابر بن حيان – رسائل جابر جمع كراوس مكتبة الخانجي ص٣٦٣ .

١٤ – جابر بن حيان – رسائل – ص٣١٥ .

١٥ – جابر بن حيان – رسائل – ص٣١٧ .

١٦ – جابر بن حيان – رسائل – ص٣٢٩ .

١٧ – جابر بن حيان – رسائل – ص٥٢٨ .

١٨ – الدلجي – المصدر السابق ص٢٤-٢٥ .

١٩ – المصدر نفسه ص٢٥ .

٢٠ – المصدر نفسه ص٢٥ .

٢١ – المصدر نفسه ص٢٦ .

٢٢ – محمد – ماهر عبد القادر – حنين ابن اسحق – اسكندرية ١٩٨٨ ص١٦٢-١٦٤. كذلك حبي يوسف وحكمت نجيب – جوامع حنين ابى اسحق بغداد ١٩٧٦ ص٦٥ وما بعدها .

٢٣ – محمد – ماهر / المصدر نفسه ص ١٦٣ . كذلك يوسف حبي / المصدر نفسه ص٦٥ .

٢٤ – الدلجي – المصدر السابق ص٢٩ .

٢٥ – تراث الاسلام – تأليف جماعة من المستشرقين تعريب – جرجيس فتح الله بيروت ١٩٧٨ ص٢٦٢ وما بعدها ، بحث لماكس مايرهوف .

٢٦ – الفارابي – آراء أهل المدينة الفاضلة ص١٣٩ . وكذلك السياسة المدينة ص٣٩ .

٢٧ – الدلجي – المصدر نفسه ص٧٦ .

٢٨ – الكندي – رسالة في دفع الأحزان ص١١٢-١٢٠ . وأنظر : مطلك فضيلة عباس – نظرية السعادة في الفلسفة الإسلامية ، رسالة ماجستير ص٢٦ .

٢٩ – الدلجي – المصدر نفسه ص٧٦ .

٣٠ – الدلجي – المصدر نفسه ص ٧٧ .

٣١ – الدلجي – المصدر نفسه ص ٧٨ .